

نظام المعاني في القرآن الكريم عند د. عبد الله دراز

د. محمد بن عامر بن سعد الصويغ

أستاذ الأدب والنقد المشارك بقسم اللغة العربية، بجامعة الأمير سّطام بالمملكة العربية السعودية.

حصل على الماجستير من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكانت أطروحته: (الصورة الفنية عند شعراء رابطة العالم الإسلامي العالمية).

حصل على الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة الملك سعود، وكانت أطروحته: (جهود الدكتور محمد محمد أبو موسى البلاغية، الأدوات والإجراءات).

البريد الإلكتروني: aboameer3000@hotmail.com

الملخص

موضوع البحث:

يتناول البحث نظام المعاني المتصل ببلاغة الآيات، ويتناول هذا النظام تصاعد المعاني وطرق إثباتها وحجاجيتها، وبراعة الإيجاز القرآني ومعانيه من خلال كتاب (النبا العظيم) للدكتور عبد الله دراز.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى استخراج النظام الدقيق للمعاني القرآنية وصلة هذا النظام ببلاغة الآية، ومن ذلك نظام الأدوات الحجاجية وطريقة بناء الآية فيها، ودراسة نظام الإيجاز القرآني ومدى شموله لمعاني القرآن الكريم.

أهم النتائج:

أن لنظام المعاني القرآنية خصائص بارزة كالتصاعد الدلالي، وأن التركيب القرآني الواحد قادر على إثبات عدة معاني بنظام دقيق، وأن الحجاج القرآني يعتمد على نظام الأدوات الصامتة، وأن نظام الإيجاز القرآني شامل لجامع المعاني حتى في الأحرف الزائدة.

أهم التوصيات:

ضرورة البحث في النظام الخاص بالمعاني القرآنية، ومن أهمها ظاهرة التصاعد الدلالي، والبحث في المعاني المستترة خلف التراكيب القرآنية، واستنباط الأدوات الصامتة التي استخدمها القرآن الكريم في الحجاج، كما يوصي البحث بدراسة الإطناب في المعاني الموجزة في الآيات القرآنية.

الكلمات المفتاحية:

د. عبد الله دراز، الإيجاز، النبا العظيم، المعاني، الحجاج.

Abstract:

Subject of the Research:

This research explores the order of meanings related to the eloquence of the verses of the Holy Quran. This order includes the meanings in progressive patten, methods to prove it, its arguments, ingenuity of Quranic brevity and its meanings through the book “Al-Naba al-Azim” authored by Dr. Abdullah Draz.

Objectives of the Research:

The research aims to extract the exact order of the Quranic meanings and connection of this order with the eloquence of the verse. It includes the order of tools of arguments, method to build the verse, study of the order of Quranic brevity and extent of its inclusiveness of meanings of the Holy Quran.

Important Outcomes:

The order of Quranic meanings has remarkable characteristics like semantic escalation. One Quranic structure is able to prove several meanings with an accurate order. The Quranic argument relies on the order of silent tools. The order of Quranic brevity is comprehensive as it includes all meanings even the meanings that are hidden in the extra letters (al-ahrul al-zaidah).

Important Recommendations:

The researches should be conducted on the order specific to the Quranic meanings especially on the phenomenon of semantic escalation, search for the meanings hidden behind the Quranic structures, deduce the silent tools which were used by the Holy Quran in arguments. Also, the research recommends that the studies should be conducted to elaborate the meanings of the Quranic verses that have been mentioned briefly.

Key Words:

Dr. Abdullah Draz, Brevity, Al-Naba al-Azim, Meanings, Argument



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن لبلاغة القرآن الكريم شأواً عالياً لا تصل إليه أقلام البشر، وقد تحدّى الله ببلاغته الأولين والآخرين، وله أنظمة في البيان والمعاني تظهر لمن أمعن فيه النظر، وهذه الأنظمة مختصة بالقرآن الكريم لم يصل إليها بشر، وقد استنبط العلماء هذه الأنظمة وعرضوا خصائصها وأبرز سماتها.

ومن أولئك العلماء د. عبد الله دراز في كتابه (النبا العظيم) فقد خصص كتابه لنظرات جديدة في القرآن الكريم، وقد أبان في كتابه سماتٍ لنظام الألفاظ والمعاني في القرآن الكريم لم يُسبق إليها (في حدود علمي) جديدة بالدراسة والتأمل؛ لأنها تفتح أبواب الدراسة البلاغية للباحثين المعاصرين وتوقفهم على بعض أسرارهِ.

موضوع البحث:

يتركز البحث في دراسة خصائص نظام الألفاظ والمعاني القرآنية وبيان أسلوب القرآن الكريم فيهما ومباينتها لكلام الأدباء، ويتناول هذا النظام: الإيقاع اللفظي وتصاعد المعاني وسماتها وطرق إثباتها وحجاجيتها، وبراعة الإيجاز القرآني ومعانيه من خلال كتاب (النبا العظيم) للدكتور عبد الله دراز.

مشكلة البحث

تكمن مشكلة البحث في عدة تساؤلات: ما نظام الإيقاع اللفظي الخاص؟ وهل للقرآن الكريم نظام معاني يختص به عن غيره؟ وهل لهذا النظام أثرٌ في بلاغته وأداء معانيه؟ وما نظام القرآن في حجاجه وإثبات معانيه؟ وما مدى إمكانية شمول الإيجاز لكافة معاني القرآن الكريم؟

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في تناوله لنظام الألفاظ والمعاني الذي تناسقت عليه آيات القرآن

الكريم، واستظهار سماته واتصاله ببلاغة الكتاب العزيز، مع الوقوف على بعض المظاهر التي دوّنها د. عبد الله دراز منها نظام الإيقاع الصوتي ونظام المعاني المتصاعدة، وقدرة هذا النظام على إثبات معانٍ متعددة من تركيب واحد، وبيان نظام الحجاج القرآني بالأدوات الظاهرة والمستترة، وتميز نظام الإيجاز القرآني وقدرته على شمول معاني القرآن كلها لا سيما مواطن الزيادة والإطناب.

أهداف البحث

- أولاً: بيان سمات نظام القرآن الصوتي وأثره على المعنى.
- ثانياً: دراسة نظام المعاني القرآنية وبيان امتيازها عن سائر القول.
- ثالثاً: إثبات قدرة النظام القرآني على إثبات المعاني المتعددة من التركيب الواحد.
- رابعاً: إبانة نظام الحجاج القرآني بالأدوات الظاهرة والمستترة.
- خامساً: الكشف عن ميزات نظام الإيجاز القرآني وشموله لآيات الكتاب العزيز.

منهج البحث

تقتضي طبيعة البحث أن أسلك المنهج الاستقرائي الوصفي المقارن القائم على تتبع نظام المعاني القرآنية وإثبات ميزات وخصائصها من خلال كتاب النبا العظيم للدكتور عبد الله دراز.

حدود البحث

يتناول البحث نظام الألفاظ والمعاني القرآني بأشكالها المتنوعة التي جاءت في كتاب (النبأ العظيم) للدكتور عبد الله دراز من الكتب، وبيان أثرها على إثبات المعاني وحجاجيتها.

إجراءات البحث

- أولاً: بدأت بترجمة يسيرة للدكتور دراز، وعرّفت بكتابه (النبأ العظيم) ويّنت مكانته.
- ثانياً: درست نظام الإيقاع الصوتي ودور المتلقي في الإحساس به.
- ثالثاً: استخلصت نظام المعاني المتصاعدة الذي ذكره د. دراز والشواهد القرآنية عليه.
- رابعاً: حصرت ما ذكره د. دراز عن نظام تقرير المعاني القرآنية للأوجه المختلفة.

- خامساً: درست نظام حجاج المعاني القرآنية وبلاغتها عند د. دراز.
- سادساً: استخلصت آراء الدكتور بنظام الإيجاز القرآني ومكانته وشموله.

الدراسات السابقة

لم أجد حسب اطلاعي بحثاً أفرد نظام المعاني عند د. دراز البلاغية وأبرزها، أما الحديث عن بعض آراء الدكتور عموماً فإنها مبثوثة في كتب البلاغة القرآنية المعاصرة لا سيما مايتعلق بالمعاني القرآنية ولكنها على سبيل الإيجاز.

الصعوبات والعقبات

من أبرز الصعوبات التي واجهت الباحث عدم وجود مصادر كافية ترتبط كلياً أو جزئياً بتراث الدكتور عبد الله دراز، إضافة إلى عدم الربط بين دراسة الدكتور والدراسات الحديثة وكذلك قلة الشواهد والأمثلة التي أوردها في كتابه، ولذا فإن دراسة الدكتور لم تتعرض إلا لجزء يسير من نظام الألفاظ والمعاني، ويمكن للباحثين من بعد استخراج أنظمة لفظية ومعنوية من بلاغة القرآن الكريم، وذلك بتوسيع الدراسة وشمولها لتطبيقات أوسع لا سيما فيما يتعلق بأدوات الحجاج الصامتة أو المستترة، وكذلك نظام الإيجاز في أدوات الإطناب المنتشرة في القرآن الكريم.

المجديد في البحث

حاول البحث أن يجلي نظام الألفاظ والمعاني الذي تحلّى به الكتاب العزيز ولم يشاركه فيه أي بيان آخر، واستخلاص نظام الإيقاع ونظام المعاني في تصاعدها وفي تقرير المعاني المتعددة من التركيب الواحد، والكشف عن الأدوات الصامتة في نظام الحجاج القرآني، وإثبات أن الإيجاز حاصل في زيادة الحروف على مباني التراكيب وأن الإيجاز قادر على شمول جميع معاني القرآن الكريم.

خطة البحث

- قسّمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة، على النحو الآتي:
- المقدمة وتشتمل على: موضوع البحث ومشكلته وأهميته وأهدافه والمنهج المتبع في

الدراسة وحدود البحث، وإجراءاته والدراسات السابقة والجديد الذي قدّمه البحث.

- التمهيد، وفيه مبحثان:
- المبحث الأول: سيرة موجزة للدكتور عبد الله دراز.
- المبحث الثاني: التعريف بكتاب (النبا العظيم).
- الفصل الأول: نظام الألفاظ والمعاني وحجاجيتها:
- الباب الأول: نظام الإيقاع اللفظي.
- الباب الثاني: نظام المعاني المتصاعدة.
- الباب الثالث: تقرير المعاني القرآنية للأوجه المختلفة.
- الباب الرابع: نظام حجاج المعاني القرآنية.
- الفصل الثاني: نظام الإيجاز القرآني في الزوائد والأصول:
- الباب الأول: شمول الإيجاز لمعاني القرآن الكريم.
- الباب الثاني: الإيجاز القرآني في الأحرف الزائدة.
- الباب الثالث: الإيجاز بحذف الأصول والأركان.
- الخاتمة والمراجع وفهرس الموضوعات.

التمهيد

المبحث الأول: سيرة موجزة للدكتور عبد الله دراز

هو محمد عبد الله دراز ولد في قرية محلة دياي بمركز دسوق، التابع لمحافظة كفر الشيخ، على الفرع الغربي للنيل في عام ١٨٩٤م، ونشأ في بيت علم وتقوى، فوالده هو الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن حسنين دراز، كان مولده بمحلة دياي أيضاً في ١٢ يناير ١٨٧٤م، في أسرة علمية كان لها نشاطٌ تعليميٌّ بارز، فأبوه الشيخ محمد وعمّه الشيخ أحمد وجدّه الشيخ حسنين وغيرهم كانوا يلقون دروس اللغة العربية وعلوم الشريعة بالمسجد العمري في بلدة دياي، والتي كان يؤمّها طلاب العلم من البلدة وما جاورها، يتلقّون العلوم بطريقة منظمة، يُراعى فيها سلّم تعليميٌّ متدرّجٌ بحسب مستويات الطلاب، ويُتاح لهم استعارة الكتب العلمية التي وقفها الجدُّ الشيخ حسنين على أولاده وذريّته.

ابتعثه الأزهر إلى فرنسا سنة ١٩٣٦م حيث دَرَسَ الشيخ فلسفة الأديان في جامعة السوربون ونال منها شهادة الليسانس والدكتوراه، بعد أن مكث في فرنسا اثنتي عشرة سنة (من مايو ١٩٣٦م - مارس ١٩٤٨م) يدرس ويتعلم ويطلع على الحياة الغربية، فلم يزد ذلك إلا اعتزازًا بثقافته العربية والإسلامية؛ وقد ظهر ذلك في مؤلفاته. والشيخ محمد عبد الله دراز وإن لم يكثر من التأليف إلا أنه ترك أعمالًا شغلت مكانة خاصة في المكتبة الإسلامية، أهمها:

- دستور الأخلاق في القرآن، وهو رسالته للدكتوراه كتبه باللغة الفرنسية، ونقله إلى العربية الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين رحمه الله.
- مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليلي مقارنة، وهذه الدراسة مع دستور الأخلاق حصل بهما على درجة الدكتوراه، وتمت مناقشتهما في السوربون يوم ١٥/١٢/١٩٤٧م.

- النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، طبع بدار القلم، الكويت.
- سافر في يناير سنة ١٩٥٨م إلى باكستان لحضور المؤتمر الإسلامي في مدينة (لاهور) وألقى فيه بحثًا بعنوان: موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها، وقد توفي في لاهور أثناء انعقاد المؤتمر في السادس من يناير سنة ١٩٥٨م، الموافق ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧هـ، رحمه الله^(١).

المبحث الثاني: التعريف بكتاب (النبأ العظيم)

ألّف الدكتور كتابه في فترات متباعدة لطلاب كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، والهدف منه تجلية وصف كتاب الله بحليته وخصائصه ورفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به. وقد ابتدأ في المبحث الأول بالتعريف بالقرآن الكريم والفرق بينه وبين الحديث القدسي، وجعل المبحث الثاني في بيان مصدر القرآن الكريم وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه، وذكر تحت هذا المبحث عدة مراحل: بيّن في المرحلة الأولى أن القرآن لا يمكن أن يكون

(١) انظر: الأعلام للزركلي (٦/٢٤٦)، وانظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين لمحمد رجب البيومي ٢٣٩/٢-٢٥٦.

إيحاء ذاتيا من نفس محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر في المرحلة الثانية أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- لا بد أن يكون أخذ القرآن من معلم.

وفي المرحلة الثالثة جاء الحديث مختصراً عن ظروف الوحي وملابساته الخاصة مستأنساً بما كشفه العلم في العصر الحديث.

أما المرحلة الرابعة فهي أطوله، وقد بحث فيها جوهر القرآن نفسه، واستقصى الشبه الممكنة حول هذه القضية وناقشها، ثم انتقل إلى الكشف عن أسرار الجمال التوقيعي والجمال التنسيقي في رصف حروف القرآن الكريم وتأليفها من مجموعات مختلفة.

ثم انتقل إلى أهم مباحث الكتاب وهو الحديث عن خصائص القرآن التي امتاز بها عن سائر الكلام وابتدأ بخصائص أسلوبه، وأثبت شمول الإيجاز لمعاني القرآن الكريم كلها، وتوقف مع الحروف التي يراها بعض العلماء زائدة وبين صلتها بالإيجاز، ثم بين صناعة البيان القرآني في الانتقال معنى إلى معنى وأن ذلك أشق من الانتقال في أجزاء المعنى الواحد، ثم ختم بدراسة نظام عقد المعاني في أطول سورة في القرآن الكريم إجمالاً وتفصيلاً.

الفصل الأول: نظام الألفاظ والمعاني وحجاجيتها

الباب الأول: نظام الإيقاع اللفظي:

يسهم الإيقاع في تألف العناصر وتماسك أجزائها^(١)، وهذا ظاهر في القرآن الكريم ولذا دعا د. دراز إلى ما يمكن أن نسميه (تجربة الإحساس ببلاغة الإيقاع القرآني) وذلك يكون على مرحلتين:

الأولى: قراءة القرآن وتلاوته مرتلاً مجوداً.

الثانية: أن يبتعد عن القارئ بحيث لا يسمع إلا صفات الحروف من حركات وسكنات ووحدات وغنات، ليجد لحناً غريباً عجيماً متسقاً مؤثلاً يباين موسيقا الشعر؛ فموسيقا الشعر تتحد فيها الأوزان بيتاً بيتاً وتتقارب حتى تملأ الأذن؛ لأنها تكرر بتوقيع واحد، أما إيقاع القرآن فمتنوع متجدد ينتقل بين أسباب وأوتاد وفواصل^(٢).

(١) انظر: الإيقاع في السجع العربي، أ/ محمد المسعدي، نشر عبد الكريم بن عبد الله، تونس ١٩٩٦م: ٥-٦.

(٢) النبأ العظيم: ٨٧.



ولعل هذه التجربة مستوحاة من فكرة ذكرها الرافعي من قبل، حيث دعا إلى تجربة الإحساس ببلاغة القرآن الكريم، وذلك أن ينظر المخاطب إلى الفرق الإيقاعي بين كلام الله تعالى وكلام غيره من البشر مع إلباس كلا الكلامين الأداء نفسه، فيعمد إلى كلام أحد البلغاء ويؤديه باللحن الذي يؤدي به القرآن من غنّات ووحدات، وعندها يستبين له الفرق ويظهر التمايز جلياً، فإن حسن الأداء مع القرآن الكريم متّسق مع كلماته وتراكيبه، بينما تراه شاداً مستكرهاً مع غيره، ولو كان الكلام كله قائماً على الوزن والإيقاع كالشعر، الذي كانت العرب تلقيه مرسلاً وتتفاعل مع معانيه، لكن بصورة لا تقترب من الأداء القرآني الذي نسمعه من القراء والمجودين^(١).

ولما كان للقرآن الكريم هذه الخاصية الصوتية، صار العرب يلحقونه بالشعر دون سائر الكلام: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وفي ذلك اعتراف ضمني بجمال الإيقاع القرآني، يقول د. دراز: "لا عجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر؛ لأنها وجدت في توقعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا في الشعر، ثم ترجع إلى نفسها فتقول: ما هو بشعر؛ لأنه كما قال الوليد ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده"^(٢)، ثم بيّن د. دراز أن الإيقاع القرآني جمع بين جلال النثر ومتعة الشعر يقول: "ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طربي الإطلاق والتقييد في حد وسط، فكان له من النثر جلالته وروعته ومن الشعر جماله ومتعته"^(٣).

ويتكون الإيقاع من عناصر فيها تناسب في الكيفيات والنظام والتكرار^(٤)، ونجد هذا بيناً في نظام الإيقاع القرآني، ففيه تقسيم صوتي تتوزع فيه صفات الحروف ولا تتزاحم، ونظراً

(١) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي: ١٤٨.

(٢) النبأ العظيم: ٨٨.

(٣) النبأ العظيم: ٨٨.

(٤) انظر: نظرية إيقاع الشعر العربي، محمد العياشي، المطبعة العصرية، تونس ١٩٦٧م: ٤٢.

لما يتسم به الإيقاع من الحركة والتفاعل^(١)، فإنه يحدد نشاط السامع حتى يلمس التنوع المنتظم والاتساق الذي يُعطي كل حرف حقه دون أن يعاقل مجاوريه، يقول د. دراز: "إن أول شيء أحسسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يحدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط الذي يُساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه آنأً بعد أن، على أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى"^(٢) وهذا مما يميز نظام الإيقاع القرآني خاصة إذا فيه تأثير بالغ في المتلقي^(٣)، مما لا تجده في كلام العرب وإن كانوا قد حاولوا إليه سبيلاً ولكنهم وقعوا في آفة الإملال والتكرير كما يرى د. دراز^(٤)، وهذه المقابلة بين كلام الله وكلام العرب مما نَحْجُه د. دراز في إثبات ميزة القرآن ولكن لم يستشهد بمثال يعضد ما قال، ولعل أي نثر عربي جيد برزت فيه خاصية الإيقاع صالح للاستشهاد به، فإنه يشوبه الحشو والإملال، وقد انبهر العرب ببلاغة القرآن الكريم من جانبه الإيقاعي الذي بُني بنظام يخالف شعر العرب ونثرهم، وحين نطَّلَع على معارضة مسيلمة للقرآن نجد أنه قد اعتمد على مقاطع القرآن وأصواته، وقد عدَّ الرافعي ذلك اعتراضاً بسلطة القرآن وخضوع أعدائه له، حيث حاولوا مجاراته ولم يخرجوا عن طريقه وأدائه^(٥).

دعا د. دراز إلى ملاحظة جمال الإيقاع القرآني وذلك بسماعة من مكان قصي ثم دعا أخرى إلى الإنصات له عن قرب لتظهر بجلاء سمات علت به عن كلام العرب الذي نجد

(١) انظر: البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة بالجزائر، عبد الرحمن تيرماسين، دار الفجر للنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م: ٩٤.

(٢) النبأ العظيم: ٨٨.

(٣) انظر: جماليات الإيقاع الصوتي في القرآن الكريم (رسالة ماجستير) إعداد محمد الصغير ميسة، جامعة محمد خيضر، كلية الآداب واللغات، قسم الآداب واللغة العربية ٢٠١٢: ١٩.

(٤) النبأ العظيم: ٨٨.

(٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٤١.



فيه الكركرة والثرثرة والرخاوة والمعاظلة^(١) وفيه اللفظ الفاتر والخشن، أما لفظ القرآن فهو مزيج من جزالة البادية ورقّة الحاضرة لا يبغي بعضها على بعض^(٢). وهذا الغلاف اللفظي إنما هو غشاء لجلائل أسرار عظيمة، فهو مع امتناعه يأخذ بالقارئ إلى ما تحته من بديع المعاني وقوة الحجة، وهو متصل بالإعجاز والتحدي، ولو كان المعارضون يحدون إليه سبيلاً لتنافسوا في محاكاته، فإن أصحاب الصناعة اللغوية يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأساليب وربما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق، ثم قرر د. دراز أن الذي منع العرب من ذلك إنما هو الإعجاز الذي يراه مشوباً بالصرفة!! يقول: "فما الذي منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم... ما ذاك إلا أن فيه منعة طبيعة كفت أيديهم عنه"^(٣).

فماذا أراد د. دراز بالصرفة؟ إن الصرفة التي نحأها المعتزلة حين يُصار إليها تفسيراً للإعجاز تلغي تميز القرآن البلاغي؛ لأن جمال البلاغة فيه لم تعجز المخاطبين إنما أعجزهم تعطيل قدراتهم بأمر خارجي لا صلة له بالبلاغة، وهذا المعنى المعتزلي لم يقصده د. دراز بل ردّه في كتابه كما في الوجه الثالث من الشُّبه التي ناقش فيها منكري البلاغة القرآنية، إنما أراد أنهم انصرفوا بعد محاولة وتجربة، فانصرفهم انصراف المنهزم الذي خضع لخصمه، وهذا المعنى مقبول، ويتفق مع معنى الصرفة العام ويشهد له التاريخ^(٤).

الباب الثاني: نظام المعاني المتصاعدة:

يرى د. دراز أن خصائص القرآن البيانية تنتظم على أربع مراتب:

- أولاً: القرآن في قطعة قطعة منه.
- ثانياً: القرآن في سورة سورة منه.

(١) الكركرة: صوت يردده الإنسان في جوفه، انظر: لسان العرب ٥/ ١٣٧ الثرثرة: كثرة الكلام وترديده انظر: الصحاح: ٥٧٥. الرخاوة: الضعف، انظر: تاج العروس ١٧/ ٣٢١ المعاظلة: تراكب الكلام بعضه على بعض، انظر: لسان العرب ١١/ ٤٥٦.

(٢) النبأ العظيم: ٨٩.

(٣) النبأ العظيم: ٩٠.

(٤) انظر: النبأ العظيم: ٧٥ - ٧٦.

- ثالثًا: القرآن فيما بين بعض السور وبعض.
- رابعًا: القرآن في جملته^(١).

وقد تناول د. دراز في كتابة المرحلتين الأوليين وترك الآخرين، ليقاس ما ذكر على ما لم يذكر، ويعني بـ(القطعة) في المرتبة الأولى ما تؤدي معنى تامًا، إما في آية أو عِدَّة آيات أو سورة قصيرة، وهو الحد الأدنى الذي تنزل إليه التحدي أخيرًا ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ولم يقل بسورة من طوله أو أوساطه، بل أطلق إطلاقًا فتناول السور كلها حتى قصارها^(٢).

وقد ذكر د. دراز أن القطعة من القرآن على وجازتها يتَّسم معناها بالشمول في أدائها وخطابها، فهي مقتصدة في لفظها وقيّة بمعناها، والقرآن الكريم يخاطب الطبقات كلها عامتها وخاصتها، وهو محرك للوجدان فيقنع العقل ويمتّع العاطفة^(٣)، ومن أدواته في إقناع وإمتاع العاطفة (نظم المعاني تصاعديًا)؛ ذلك أن المعاني تتفاوت في شدتها ولينها وقربها من النفس وبعدها، وحين تتعدد المعاني على الشيء الواحد تنتظم تصاعديًا، فتبدأ الآيات بألينها وأقربها إلى النفس، ثم تسلك سبيل التصعّد حتى تنتهي عند أشدها.

ويمتاز هذا الأسلوب بتثبيت المعاني وتقويتها، إذ تستقر المعاني في النفس وفقًا لحالتها، ولا تنتقل إلى ما هو أعلى حتى تكون النفس قد أخذت أهبّتها ليستقر المعنى دون قلق أو اضطراب، وهذا الملمح دقيق الغاية لطيف المآخذ، توقف معه د. دراز في آيات الأحكام التي فيها وقع شديد وتهديد ووعيد، إذ رأى أن هذه الآيات تسلك سبيل التدرج التصاعدي، ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بِكَ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، يرى د. دراز أن المعاني في هذه الآية قد انتظمت تصاعديًا على أربع مراحل:

- الأولى: الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

(١) انظر: النبأ العظيم: ٩٢.

(٢) انظر: السابق: ٩٢.

(٣) انظر: السابق: ٩٣ - ٩٦.

- الثانية: تريق العاطفة بين الواترين والموتورين في قوله: (أَلْحَرْ بِالْحَرْ) وقوله: (وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ) وقوله: (وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى)
 - الثالثة: الامتنان في قوله: (ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ).
 - الرابعة: التهديد في ختام الآية: (فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(١).
- وهذه المعاني الأربع قد انتظمت تصاعدياً ففي الأول استمالة القلوب ببناء الإيمان، ثم تحريك عواطف أطراف النزاع وتذكيرهم بالأخوة التي تستدعي المعروف والإحسان، ثم ذكرهم بفضل الله ورحمته في شرع هذه الأحكام، وأن من حادَّ عن منهجه فإنه مستحق للعذاب الأليم والعقاب الوخيم.

الباب الثالث: تقرير المعاني القرآنية للأوجه المختلفة:

يرى د. دراز أن النصَّ القرآني قد جمع بين حُسن البيان والإجمال، فليس في بيانه لغو زائد وليس في إجماله إبهام مُلبس، وذلك أن القطعة من القرآن الكريم حين تقرأها يتسابق إلى نفسك معناها حتى ترى أن القطعة لا تحتل غيرها، فإذا قلبت الطرف رأيت معاني أخر بإزاء المعنى الأول تلتئم معها ولا تضادها، وهذا من قبيل (جوامع الكلم) التي يأتي فيها التركيب الواحد حاملاً معه معاني عدة، وهو إنجاز لفظي وبيان معنوي؛ فإن الألفاظ أقل من المعاني، وكلما تعالى النص جودة كان أرحب احتمالاً للقراءات والمعاني المختلفة، والنص هو الذي يقرر استجابة القارئ للمعاني المختلفة، كما قال الناقد الألماني (ولنفجانج أيسر)^(٢)، بل إن بعض النقاد يرون أن قراءة النصوص لا تنتهي، فإن عدد القراءات تساوي عدد القراء^(٣).

والقرآن الكريم قد تميز بجوامع الكلم، وذلك مشتهر في كلام العلماء، إلا أنَّ د. دراز قد وقف على لون بديع متصل بجوامع الكلم، إذ وجد أن القرآن الكريم يقرر معاني ويؤكددها وفق قواعد قرآنية وسنن إلهية، ففي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

(١) انظر: النبأ العظيم: ٩٨.

(٢) انظر: من سلطة النص إلى سلطة القراءة، فضل ثامر، مقال في مجلة الفكر العربي المعاصر العدد ٤٨-٤٩ عام ١٩٨٨م صفحة ٨٩.

(٣) انظر: السابق.

حِسَابٍ ﴿البقرة: ٢١٢﴾، تأمل د. دراز في قوله: (حساب) وفق سياقها ورأى أنها تقرّر عِدَّة معاني، يقول: "انظر كم في هذه الكلمة من مرونة، فإنك لو قلت في معناها: إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله: لماذا ييسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء؟ أصبت" ^(١)، ولعل هذا المعنى أخذه د. دراز من قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثم ذكر د. دراز أن قوله (بغير حساب) يشير إلى سعة خزائن الملك جلّ جلاله، يقول: "ولو قلت: إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاق، أصبت" ^(٢)، ولعل هذا المعنى أخذه من قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ﴾ [النحل: ٩٦]. وعطاء الله - سبحانه - لا ينتظر عليه جزاء ولا شكورا من خلقه، يقول د. دراز: "ولو قلت: إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب أصبت" ^(٣)، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨]، ولا يتبع سبحانه عطاءه باللوم، يقول د. دراز: "ولو قلت: إنه يرزق بغير معاتبة ومناقشة له على عمله، أصبت" ^(٤)، وربما يشهد لهذا قوله لأهل الجنة: ﴿أَدْخِلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]، ثم ذكر د. دراز المعنى الخامس فقال: "ولو قلت يرزق رزقاً كثيراً لا يدخل تحت حصر وحساب، أصبت" ^(٥)، وبعضه قول الله تعالى لسليمان عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] وإسناد العطاء إلى ذي العزة والجلال بضمير العظيمة (نا) يستلزم الكثرة.

ثم أرجع د. دراز هذه المعاني الخمسة إلى أصول وقواعد تنطلق منها، من شأنها تأكيد هذه المعاني وكشف أبعادها، ففي المعنى الأول ذكر أنه تقرير لقاعدة الأرزاق في الدنيا وأن

(١) النبأ العظيم: ٩٩.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق: ٩٩.



نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله، بل تجري وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين، ومن الهضم لنفوس المغرورين من المتزفين^(١).

وأما المعنى الثاني فراجع إلى التنبيه لسعة خزائن الله وبسطة يده جلّ شأنه^(٢)، وهذا يستحث من الداعي طلب المزيد، والله سبحانه يقول عن نفسه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]^(٣)، وأما المعنى الثالث فعائد إلى سعة قدرة الله تعالى، يقول د. دراز: "وعلى الثالث يكون تلويحاً للمؤمنين بأن الله سيفتح من أبواب النصر والظفر حتى يبذل عسرهم يسرا وفقرهم غنى من حيث لا يظنون"^(٤). ثم أرجع الوجه الرابع والخامس إلى كرم الله وفضله على عباده، يقول د. دراز: "وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العد"^(٥)، وهذان المعنيان وما قبلها قد أيدتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وبهذا تلتئم معاني القرآن وآياته بعضها مع بعض، ويعود بعضها على بعض.

الباب الرابع: نظام حجاج المعاني القرآنية:

تحتاج الآيات القرآنية عن معانيها لإثباتها بأدوات مؤثرة ربما تخفى على من لم يمعن النظر، وهذه الأدوات الحجاجية تمتزج مع أدوات بلاغية أخرى وتتعاقد في حمل المعاني وأدائها. وقد تناول د. دراز حجاج المعاني في قطع قرآنية وبسط الحديث في محاجة القرآن لأهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَالُوا تَوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

مُؤْمِنِينَ ﴿البقرة: ٩١﴾، ويرى د. دراز أن فهم الحجاج القرآني يتوقف أولاً على تحديد عناصر الخطاب، ولذا افتتح الحديث بتقسيم الآية إلى محاور ثلاثة:

- المحور الأول: مقالة للناصح يخاطب اليهود ويدعوهم إلى الإيمان بالقرآن الكريم.
- المحور الثاني: إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين.
- المحور الثالث: الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه^(١).

وتحت المحور الأول يأتي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٩١] وهذا دعوة وإلزام، فإنه دعاهم إلى الإيمان بالقرآن كما آمنوا بالتوراة والإنجيل فكلها أنزلها الله سبحانه، وهذا ما دعاه إلى العدول عن صريح اسم القرآن إلى كنياته "فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاءً إلى الشيء بحجته، وبذلك أخرج الدليل والدعوة في لفظ واحد"^(٢). وبناء الدعوة على الإيجاز يسهم في تقويتها، فإن الآية حذفت المنزل عليه وهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أرجعها د. دراز إلى ثلاثة أسباب تجلّي علاقة الحذف بالحجاج:

- الأول: عدم العلاقة بين الدعوة وذكر المنزل عليه، فأدير الأمر على القدر المشترك.
- الثاني: التصريح باسم المرسل إليه ربما يفسد المعنى؛ لأنه يثير أضغان الأعداء ويثور أحقادهم فيؤدي المعنى إلى نقيض ما يراد منه.
- الثالث: أن حذف اسم المرسل إليه يؤكد نبذ الخصومة ويجمع ما تفرق من أتباع الأديان^(٣).

ثم جاء القسم الثاني وهو رد اليهود على الناصح بجملة تحوي على مقصدين: صريح ولازم، فأما الصريح فجاء في جوابهم: ﴿قَالُوا تَوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، إذ رأوا أن إيمانهم خاص بما أنزل عليهم، أما القرآن فلم ينزل عليهم، ولكل أمة شرعة ومنهاج، وأما اللازم الذي لم يصرحوا به فهو الكفر بكل الكتب التي أنزلها الله تعالى ومنها التوراة التي صرحوا بأنهم يؤمنون بها "ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على

(١) السابق: ١٠٠.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

أنفسهم بالكفر"^(١)، والقرآن صرح به: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾؛ لأن الكفر ببعض ما أنزل الله كفر بالجميع، وهذا ملمح مهم فإن من سمات الحجاج أن تفضي بعض الأقوال إلى التسليم بأقوال أخرى كما يرى (ديكرو)^(٢).

وقد أورد هذا اللازم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ حاملاً ميزتين:

- الأولى: الإشهار والإبراز إذ جاء في جملة مستقلة بعد رد اليهود: ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهذا الإبراز يسهم في تقوية حجة الإنكار وتقرير كفرهم.
- الثاني: الأمانة والدقة: "فلم تجعل الآية لازم مذهبهم مذهباً لهم، ولم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نُقل من كلامهم، بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقاتلتهم"^(٣). ويتصل بالأمانة والدقة أن حددت الآية كفرهم زمنياً ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ فما نزل قبل التوراة فلا يدخل في تكذيبهم وأما ما نزل بعدها كالإنجيل فداخل^(٤)، وهذا الإطار الزمني متصل بحجاج اليهود ومظهر لتناقضهم، إذ آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض دون مستند.

تم تنتقل المعاني عن مناقشة إيمانهم بكتابهم إلى ذكر التوافق التام بين القرآن الكريم والإنجيل من أوجه ثلاثة:

- الأول: أن كلا الكتابين حق ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، فليس الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر كما ادّعى اليهود فقالوا: ﴿قَالُوا تَوْحِيدٌ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.
- الثاني: أن القرآن الكريم ليس حقاً فحسب بل مصدق لما معهم من التوراة، أي موافقاً له في كل ما دلّ عليه^(٥)، وهذا يدفع شبه تعارض الحقين "فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً فلا يتكاذبان، ولكنهما في شأنين مختلفين، فلا يشهد بعضهما لبعض، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً ومصدقاً لما بين يديه من الكتب فأبى يكذب به من يؤمن

(١) النبأ العظيم: ١٠١.

(٢) انظر الحجاج في اللغة، شكري المبخوت: ٣٦٠-٣٦١.

(٣) السابق: ١٠١.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٢/٢٥٥-٢٥٦.

(٥) انظر: تفسير السعدي ٥٩.

بها! (١).

الثالث: أن القرآن الكريم موافق لما جاء معهم مما لم يدخله التحريف أو التبديل، وهذا تقييد للوجه السابق، يقول د. دراز: "لو أن التحريف أو الضياع الذي نال من هذه الكتب قد ذهب بمعالم الحق فيها جملة لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن، أما وهذا القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب في زمنهم وبأيديهم ويدرسونه بينهم فيماذا يعتذرون وأنى يذهبون؟! هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة ﴿لَمَّا مَعَهُمْ﴾" (٢).

ثم عادت الآية لتحاجهم عما جعلوه مستنداً في تكذيبهم: ﴿ثُمَّ مِمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ، وَأَنْ ادْعَاهُمْ هَذَا بَاطِلٌ مِنْ أُسَاسِهِ؛ فَإِنْهُمْ عَارِضُوا الرَّسْلَ وَكَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَتَجَرَّأُوا عَلَى قَتْلِ أَنْبِيَائِهِمْ، وَهَذَا شَاهِدٌ تَارِيخِي لَا سَبِيلَ لِنِكَارِهِ﴾ ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: فلم قتل آباؤكم أنبياء الله... لأنهم يحق لهم أن يقولوا: ما لنا ولآبائنا؟ تلك أمة قد خلت ولا تزر وازرة وزر أخرى، كما أن بناء الجملة على الإيجاز داخل في صميم الحجاج يقول د. دراز: "اختصار الكلام على ما ترى إسراعاً بتسديد سهم الحجة إلى هدفها وتبنيها في الوقت نفسه أنهم ذرية بعضها من بعض، وأنهم سواسية في الجرم، فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستئنان بسنة أسلافهم أو الرضى عن أفاعيلهم أو الانطواء على مثل مقاصدهم" (٣).

وعندما نتأمل في هذا الخطاب الحجاجي نجد أنه استغرق مراحل عملية الحجاج: أولاً: الوعي والانتباه، ثانياً: الفهم والاهتمام ثالثاً: الإقناع رابعاً: السلوك والاستجابة (٤).

الفصل الثاني: نظام الإيجاز القرآني في الزوائد والأصول

للإيجاز مكانة عالية، ولذا قيل: البلاغة الإيجاز (٥)، ويُقرن الإيجاز في الدراسة البلاغية

(١) النبأ العظيم: ١٠٢.

(٢) السابق.

(٣) السابق: ١٠٣.

(٤) انظر: مقدمة في رسائل الاتصال، علي عجمو وآخرون: ٩٥-٩٦.

(٥) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري: ١٧٣.

بقسمين آخرين هما: الإطناب والمساواة، وقد عُني د. دراز به، ورأيتُ أن أجعل حديثه في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: شمول الإيجاز لمعاني القرآن الكريم:

يرى د. دراز أن نظام المعاني القرآنية لا يخرج عن الإيجاز في كل أحواله، وأنه الفضيلة الأجدر بمعاني الكتاب العزيز دون أن يُراحم بوصفي: الإطناب والمساواة. وقرّر د. دراز أن المقياس الذي يضبط الحكم على الكلام إيجازاً أو إطناباً^(١) إنما هو المقدار الذي يؤدي به المعنى بأكمله بأصله وحليته على حسب ما يدعو إليه المقام من إجمال أو تفصيل بغير إجحاف ولا إسراف^(٢)، ثم عرض لهذا المفهوم عدة مصطلحات منها القصد والمساواة، ولكنه أثر أن يطلق عليه (الإيجاز) لأن معناه السرعة والتخفيف في بلوغ الحاجة بالقدر الممكن، فإن زادت سرعته عُدَّ إخلالاً وإن نقص عُدَّ إملاً، واستند الدكتور إلى ما وجدته في تراث اللغة من الثناء على (الإيجاز) وتواصيهم عليه، وذكر فيه حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "يا جرير إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف"^(٣).

ويؤكد د. دراز على أن الإيجاز هو الفضيلة التي تطلب من المتكلم و"لعلها في مقام التفصيل أكد طلباً وأصعب منالاً، فالكلام الطويل إن حوى كل جزء منه فائدة تمس إليها الحاجة ولا يسهل أداء تلك الفائدة بأقل منه كان هو عين الإيجاز المطلوب"^(٤)، ولما اطمأن د. دراز إلى هذا المصطلح أعاد الفضيلة إليه في كل معاني القرآن، سواء في مواضع إجماله التي تسمى الإيجاز، أو في مواضع تفصيله التي تسمى الإطناب؛ لأن معاني القرآن لا تؤدي كاملة العناصر والحلي إلا بأقل الألفاظ، ولذا فهي إيجاز على كل أحوالها.

(١) انظر: البلاغة بين عهدين في ظل الذوق الأزلي وتحت سلطان العلم النظري، محمد نايل أحمد: ١٦٩.

(٢) السابق: ١٠٧.

(٣) ذكر الحديث بلا إسناد في كتب الأدب، انظر: الكامل للمبرد ١/١٠ وانظر: لسان العرب ٤٢٧/٥ وانظر: النبأ العظيم: ١٠٧.

(٤) النبأ العظيم: ١٠٧.

الباب الثاني: الإيجاز القرآني في الأحرف الزائدة:

يقرر د. دراز شمول نظام الإيجاز لمعاني القرآن حتى ما أضيف على أصل التركيب كالأحرف التي تُسمى زائدة، وقد تنازع العلماء قديماً في زيادة هذه الأحرف^(١)، وبحث د. دراز هذه القضية تحت قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، إذ رأى بعض العلماء أن (الكاف) زائدة^(٢) ورأوا أن عدم زيادتها منتفية عقلاً؛ لأنها تثبت شبيهاً لله تعالى، وهذا ما جاءت الآية بنفيه، فلو لم تكن زائدة فإن النفي يتوجه إلى نفي شبيه المثل لا نفي المثل، ويكون بذلك تسليماً بثبوت المثل له سبحانه.

ويرى بعض العلماء أن ثبوت الكاف لا يؤدي إلى المحال لا نصّاً ولا احتمالاً؛ لأن نفي مثل المثل يتبع في العقل نفي المثل أيضاً^(٣).

وقد ضعّف د. دراز هذا القول؛ لأنه لا يثبت للكاف أي فائدة، فمؤدى الكلام معها قد ازداد تكلفاً، وهل سبيله إلا سبيل الذي أراد أن يقول هذا فلان فقال: هذا ابن أخت خالة فلان".

ولم يرتض د. دراز القولين السابقين إنما نفى زيادة الكاف وأثبت لها معاني:

- الأول: نفي المثل المقارب: فالآية دون الكاف تنفي المثل المطابق ولكنها لا تنفي المثل المقارب، وهذا ربما يفتح باب الأوهام لوجود مرتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، وذُكر الكاف يدفع هذا الوهم، فكأنه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله فضلاً على أن يكون مثلاً على الحقيقة، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى.
- الثاني: إقامة الدعوى: فالكاف يفيد النفي مع إقامة الدعوى، فلو أنك أردت أن تنفي عن فلان صفة الكذب فقلت فلان لا يكذب، تكون نفيت عنه الكذب فحسب، أما لو قلت: مثل فلان لا يكذب، فهذا نفي مع إقامة الدعوى والبيّنة، فكأنك قلت من كان مثل فلان في صفته وشيمه لا يمكن أن يقع منه الكذب^(٤)، وهذا ما جاءت الآية

(١) فصل في ذلك الزركشي في كتابه: البرهان في علوم القرآن: ٧٠/٣ - ٧٥.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن: ٧٨/٢.

(٣) انظر: النبأ العظيم: ١٠٩.

(٤) وقريب من ذلك ما ذكره عبد القاهر في تقديم (مثل-غير) انظر: دلائل الإعجاز: ١٣٩.

عليه، فكأن قيل: مثله تعالى لا يكون له مثل، تعني أن من كانت له هذه الصفات الحسنى لا يمكن أن يكون له شبيه ولا يتسع الكون لاثنين من جنسه.

الباب الثالث: الإيجاز بحذف الأصول والأركان:

يعد الإيجاز من أركان البلاغة^(١)، ويأتي غالبًا من اجتناب الحشو وحذف الفضول أو انتقاء الألفاظ الجامعة التي تكون أتم تحديدًا للغرض وأشمل اتساعًا لمعانيه، فالإيجاز إما بالحذف أو بالقصر، وفي إيجاز الحذف نجد أن للقرآن طريقةً عجيبةً فهو لا يحذف الفضول والحواشي إنما يحذف أحيانًا الأصول والأركان.

وليس هذا كحذف الجواب وإن كان أصلاً كقولهم: من بالدار؟ فيقال: محمد، والأصل أن يقال: في الدار محمد، فإنه وإن كان حذفًا للأصل فإنه قريب من حذف الحواشي؛ لأن الأصل اقترب من الفضلة لدلالة الكلام عليه، أما الذي جاء به القرآن الكريم في حذف الأصول والأركان فحذف لأصول آخر، مع استثمار اللفظ المذكور في تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح، فلا تحس بنقص ولا بتر، وذكر د. دراز أن المعاني بهذا الحذف تتسع ولا تضيق^(٢)، وضرب مثلاً بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ أَصْعَجُتُمْ بِهِ حُقُبًا لَقَدْ بَقِيَ الْخَيْرُ لَكُمْ كَثِيرٌ مِنْهُ فَيَمْسَحُهُ يَوْمَ السَّاعَةِ﴾ [يونس: ١١].

وقبل أن يبين د. دراز الأصول المحذوفة قسّم الآية إلى مقدمة ونتيجة وبينهما استدراك، فالمقدمة فيها استعجال من المشركين بالعذاب ثم النتيجة لذلك، وبينهما استدراك مضمّر قدّره د. دراز بقوله: "لو كانت سنة الله قد مضت بأن يعجل للناس الشر إذا استعجلوه كتعجيله لهم الخير إذا استعجلوه لعجله لهؤلاء"^(٣)، والمقدمة على وجازتها تكوّنت من أربعة عناصر: تعجّلان من الله في الخير والشر يقابله استعجالان من الناس في الخير والشر كذلك، ولكن الآية حذفت بعض الأصول الأربعة لدلالة ما بقي على ما حذف، فليس فيها إلا تعجيل واحد من الله واستعجال واحد من الناس، وجاءت المقابلة في التشبيه بين

(١) سئل بعضهم ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز في غير عجز، وقال آخر: إقلال في إيجاز، انظر: العقد الفريد: ١٢٣/٢.

(٢) انظر: النبأ العظيم: ١١٢.

(٣) السابق: ١١٣.

تعجيل واستعجال ولم تأت بين تعجيل وتعجيل أو بين استعجال واستعجال، وهذه المقابلة دلّت على ما حُذف مع إشراق ليس فيه بتر ولا التواء، واعتمدت على ثلاث وسائل ذكرها د. دراز دلّت على المحذوف ونُبّهت عليه، أما الأول فداخل في الروابط الحجاجية^(١)، وهما حرفان: (لو - الفاء) وأداة الشرط (لو) تدل على امتناع التعجيل، و (الفاء) حرف تفرّيع صُدرت بها النتيجة في قوله: (فنذر) لكي ينم على أن لهذا الفرع أصلاً من جنسه وهو الاستدراك الذي طوته الآية ويقال فيه: "ولكن قد جرت سنته التي لا تتبدل بأن يمهّل الظالمين ويؤخر حسابهم إلى أجل مسمى.." ^(٢).

وأما الوسيلة الثانية فإن الآية حذفت طرفين ليسا من جنس واحد ليدل كل واحد على نظيره المحذوف، فكلمة (التعجيل) نبّهت على نظيرتها وكذلك (الاستعجال)^(٣).
وأما الوسيلة الثالثة فإنها راجعة إلى الحكمة العظيمة التي لا تكون تابعة لأهوية البشر فقد ذكر سر الإمهال و عدم التعجيل، فلو عَجَّلَ لهم ما طلبوا لكان فيه هلاكهم^(٤).
ويرى د. دراز أن في الآية عدولاً أسهم في الإيجاز، فقد ولي أداة الشرط (لو) فعلٌ مضارع، والغالب أن يليها ماضٍ، ولذا يرى سيويه أن (لو) حرف لما كان سيقع لوقوع غيره^(٥)، وهذا العدول طوى كلاماً إذ لو جاء الماضي لقليل: "لو كانت سنة الله المستمرة في خلقه أن يعجل العذاب لعجله لهؤلاء كتعجيله لهم الخير إذا استعجلوه، ولكن اختصر الكلام في لفظ واحد بإخراج الفعل في صورة المضارع الدال على التكرار والاستمرار واكتفى بوضع (لو) قرينة على أن ما بعدها ماضٍ في معناه، وهكذا أدى الغرضين جميعاً في رفق ولين"^(٦).

وذكر د. دراز شاهداً آخر على الإيجاز القرآني الذي يطوي بعض الأصول ويقيم مكانها

(١) انظر: الحجاج في اللغة، شكري المبخوت: ٣٧٧.

(٢) النبأ العظيم: ١١٣.

(٣) السابق: ١١٤.

(٤) انظر السابق: ١١٤.

(٥) الكتاب: ٢٢٤/٤.

(٦) انظر: النبأ العظيم: ١١٤.



ما يدل عليها، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَهُ بَيِّنًا أَوْ تَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ٥٠ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ عَذَابُهُمْ بِهِ ءَأَلَّنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥٠-٥١]، فإنَّ تحت الاستفهام: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ جملاً طويلاً، يقول د. دراز مبيناً ما طوي: "أيهما تختارون؟ أتستعجلون بالعذاب يومئذ كما تستعجلون به اليوم؟ كلا فإنكم مجرمون، وكيف يتشوق المجرم لرؤية العذاب الذي إن جاء فهو لا محالة واقعه؟ ثم نبؤوني أي نوع منه تستعجلون؟! فإنه ليس نوعاً واحداً بل هو ألوان وفنون، أم أنتم اليوم تكذبون ثم إذا وقع بعد حين آمنتم به؟ ألا إنه لن ينفعكم يومئذ إيمانكم بعد أن ماطلتم وسوّقتم حتى ضيعتم الفرصة وفاتكم وقت التدارك، بل هنالك يقال لكم تنديماً وتحسيراً: آلان تؤمنون وقد كنتم به تكذبون وتستعجلون^(١).

فالاستفهام يعقد المقارنة بين مشهدين وبيّن المفارقة بينهما، أما المشهد الأول فهو حالهم اليوم في جحودهم الحق، وأما حالهم الأخرى ففي مستقبل سيأتي حتماً يقاسون فيه ما كانوا به يكذبون، فالتوبيخ ممتد زمنياً وصالح لحالهم اليوم وغدا: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وفرّع عليه د. دراز استفهات أخرى: أي الطريقين تختارون؟ الإيمان أو الكفر؟ وبعد رؤية العذاب الأليم تتغير مواقفهم؛ لأن ما كذبوه بالأمس صار حقيقة اليوم، فجاء بالاستفهام الآخر: أتستعجلون بالعذاب يومئذ كما تستعجلون به اليوم؟ ولتأكيد التهديد والتقريع جاء بالاستفهام الثالث الذي يبين ألوان العذاب وشدائده: نبؤوني أي نوع منه تستعجلون؟! فإنه ليس نوعاً واحداً بل هو ألوان وفنون.

الخلاصة:

وقف البحث على نظام المعاني في القرآن من وجهة نظر د. عبد الله دراز، وبيّن الظواهر التي استنبطها الدكتور مثل (نظم المعاني المتصاعدة) وبيّن صلتها بالبلاغة القرآنية وتوسيع المعاني وتنميتها وتناسقها، وبيّن البحث نظام تقرير المعاني وحجاجيتها لا سيما بالأدوات الصامتة التي لم تذكر في الآية، ودرس البحث ظاهر الإيجاز الذي يراه الدكتور شاملاً لكل معاني القرآن الكريم حتى في مواطن الزيادة، وأن للقرآن طريقةً بديعةً في الإيجاز ربما يحذف

(١) انظر: النبأ العظيم: ١١٥.

بعض الأصول لدلالة الأصول الأخرى المذكورة عليها.

النتائج:

بعد هذه الدراسة توصلت إلى عدة نتائج تخدم الباحث في بلاغة الألفاظ والمعاني القرآنية وكذلك دارس نظرية الحجاج وعلم الدلالة من خلال تطبيق أدوات جديدة في تحليل الخطاب، ومن أبرز هذه النتائج:

- أولاً: إن للقرآن الكريم نظاماً فريداً في ألفاظه ومعانيه يفوق كل كلام، وهذا يستفيد منه من يقارن بين القرآن الكريم وكلام الأدباء.
- ثانياً: إن من ميزات نظام المعاني تصاعد المعاني الذي ينبع من اتساق الآية وبلاغتها.
- ثالثاً: إن الحجاج كما يكون بالأدوات المذكورة يكون بالأدوات المحذوفة، وهذا يفتح مجالاً واسعاً في دراسة نظرية (الحجاج).
- رابعاً: إن للإيجاز القرآني سلطة كبيرة على أكثر معاني القرآن الكريم.
- خامساً: إن الزيادة الظاهرة ربما تخفي تحتها معاني أوجزتها.
- سادساً: إن الإيجاز يكون أحياناً بحذف بعض الأصول التي يدل عليها غيرها.



المصادر والمراجع:

١. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثامنة - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.
٢. الأعلام، الزركلي، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر مايو ٢٠٠٢ م
٣. الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين القزويني، المعروف بخطيب دمشق (ت ٧٣٩هـ) المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي الناشر: دار الجيل - بيروت الطبعة الثالثة.
٤. الإيقاع في السجع العربي، أ. محمد المسعدي، نشر عبد الكريم بن عبد الله، تونس ١٩٩٦م
٥. البداية والنهاية تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م سنة النشر: ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م
٦. البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.
٧. البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة بالجزائر، عبد الرحمن تيرماسين، دار الفجر للنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م
٨. تاج العروس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: جماعة من المختصين من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت أعوام النشر: (١٣٨٥ - ١٤٢٢ هـ) = (١٩٦٥ - ٢٠٠١ م).
٩. تفسير السعدي، تحقيق: د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
١٠. تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة:

الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

١١. جماليات الإيقاع الصوتي في القرآن الكريم (رسالة ماجستير) إعداد محمد الصغير ميسة، جامعة محمد خيضر، كلية الآداب واللغات، قسم الآداب واللغة العربية ٢٠١٢
١٢. الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة.

١٣. الرسالة الشافية، عبد القاهر لعبد القاهر الجرجاني، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م

١٤. شرح رسالة الرماني لعالم مجهول كأنه عبد القاهر الجرجاني، كشف عنه وعُلّق عليه د. زكريا سعيد علي، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٥. العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ

١٦. القول بالصرف في إعجاز القرآن، عرض ونقد أ.د. عبد الرحمن بن معاضة الشهري، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ

١٧. الكامل، المبرد، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

١٨. كتاب الصناعتين، أبي هلال العسكري المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت عام النشر: ١٤١٩ هـ

١٩. لسان العرب الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٢٠. المستدرك على الصحيحين، الإمام الحاكم دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.



٢١. مقدمة في رسائل الاتصال، علي عجوة وآخرون، مكتبة مصباح، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٩١
٢٢. من سلطة النص إلى سلطة القراءة، فضل ثامر، مقال في مجلة الفكر العربي المعاصر العدد ٤٨-٤٩ عام ١٩٨٨م.
٢٣. الموضح عن جهة إعجاز الكلام، الشريف المرتضى، تحقيق محمد رضا الأنصاري، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للأستانة الرضوية، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ
٢٤. نظرية إيقاع الشعر العربي، محمد العياشي، المطبعة العصرية، تونس ١٩٦٧م
٢٥. النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، محمد رجب البيومي، دار القلم بدمشق والدار الشامية ببيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ
٢٦. النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، المكتبة التوقيفية- القاهرة، الطبعة الثالثة ٢٠١٦م.